

السجل العلمي

لمؤتمر الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي آثاره العلمية والدعوية

لجنة الأمانة

الأربعاء والخميس
٢٣-٢٤ ربيع الأول ١٤٤١



(6)
التفسير المقاصدي عند السعدي في تفسيره
أ.د. محمد بن عبد الله الربيعه

الرعاة

مصرف الإنماء
alinma bank



التفسير المقاصدي
عند السعدي في تفسيره
(ورقة عمل)

أ.د. محمد بن عبدالله الربيعة

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة القصيم

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

فإن من أعظم العلوم المتعلقة بكتاب الله تعالى، علم المقاصد القرآنية التي تدور حول غايات القرآن وحكمته، وهو جانب مهم يحقق الغاية من كتاب الله تعالى ويوصل إلى الاهتداء والعمل به.

وقد عُنِيَ بذلك المفسرون قديماً وحديثاً، ذلك أن غاية المفسر هو بيان المقصود من الآيات الذي به يعرف مراد الله من كلامه سبحانه.

وهذا الجانب وإن لم يكن ظاهراً كنوع من أنواع التفسير إلا أنه مرتبط بالتفسير أصلاً في أي نوع من أنواعه.

وممن عُنِيَ بهذا الجانب عناية بارزة، السعدي في تفسيره «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، وكتابه «القواعد الحسان».

ولظهور هذا الجانب عند السعدي مع عدم إبرازه لدى الباحثين كجانب من الجوانب التي تميز بها السعدي حقيقة، بل إنني على يقين بأن تميّز السعدي وعظم أثره كان لعدة أسباب، منها: عنايته بجوانب الحكمة في الآيات.

ومن هنا جاء هذا البحث تلبية لدعوة اللجنة العلمية في مؤتمر السعدي، للكتابة عن جانب من جوانب التفسير عند السعدي رحمه الله تعالى.

وقد بنيت خطة هذا البحث على: مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث.

المقدمة: وفيها بيان أهمية البحث والحاجة إليه وخطة البحث.

التمهيد، وفيه:

* التعريف بالمقاصد والتفسير المقاصدي.

* علاقة التفسير المقاصدي بأنواع التفسير وأثره فيها.

* الحاجة إلى التفسير المقاصدي.

المبحث الأول : مقاصد القرآن العامة عند السعدي

المبحث الثاني : مقاصد السور عند السعدي

المبحث الثالث : مقاصد الأحكام عند السعدي

المبحث الرابع : مقاصد الآيات عند السعدي

المبحث الخامس : مقاصد الألفاظ عند السعدي

وقد سلكت منهج البحث الاستقرائي والتحليلي، وأعتبر أن هذه الورقة نواة
لمشروع بحثي في تفسير السعدي في مجال المقاصد والحكمة في تفسيره.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل مباركاً

وصلى الله على نبينا محمد...

التمهيد:

مدخل إلى التفسير المقاصدي :

لابد لنا قبل الدخول في بيان المقاصد عند السعدي أن نذكر مقدمات مهمة حول التعريف بالمقاصد والتفسير المقاصدي، وعلاقته بأنواع التفسير.

- تعريف المقاصد:

- المقصد:

لغة: ما ينتج عنه التوجه نحو الشيء، فَصَدَ الشيء أي: توجه إليه سواء كان التوجه بالنظر أم بالجسد، فَصَدْتُ كذا أي: توجهتُ إلى هذا الأمر، أو إلى هذا الرأي^(١).

وتأتي الكلمة عند أهل اللغة بمعان عدة منها:

- استقامة الطريق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النحل: ٩).

- العدل والوسط بين الطرفين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّقْتَصِدٌ﴾ (فاطر: ٣٢)^(٢).

اصطلاحًا: مقصد الكلام، هو أن يتوجه الكلام واللفظ إلى معنى معين، أو غاية يريدتها المتكلم^(٣).

وأما المقاصد القرآنية؛ فهي: الغايات التي أَرادها الله في كتابه، ويعبر عنها بـ: «مراد الله تعالى من كلامه»، وعرفها الدكتور عبد الكريم حامدي بأنها: «الغايات

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٥٩).

(٢) لسان العرب (٣/ ٩٥)، مختار الصحاح (٢/ ٢٤).

(٣) نظرية المقاصد (ص: ١٩).

التي أنزل القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد»^(١).

والمقاصد في كتاب الله تعالى منها ما هو صريح أي: غايته صريحة؛ مثل قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ (البقرة: ٢)؛ يبين الله تعالى أن غاية هذا الكتاب ومقصده هو الهدى، فهذه الغاية صريحة.

وهناك مقاصد خفية في أثناء الكلام؛ كما في قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ (البقرة: ٢)؛ غايتها: بيان علو هذا الكتاب وارتفاع منزلته، فهذه غاية لم يصرح بها، وإنما فهمناها من اسم الإشارة: ﴿ذَلِكَ﴾.

والمقاصد مصطلح يشترك معه مرادفات أخرى مثل: الحكمة، والعلة، والغايات، والغرض، والمراد، والأهداف، ولا أرى فرقاً بينها.

مفهوم التفسير المقاصدي،

من خلال تعريفنا للمقاصد عامة، يمكن لنا أن نحدد مفهوم التفسير المقاصدي بأنه: علم يبحث في الغايات التي يدور حولها القرآن كلياً أو جزئياً، واستخراج حكمه وهداياته.

قال د. وصفي أبو زيد في كتابه التفسير المقاصدي: «هو لون من ألوان التفسير يبحث في الكشف عن المعاني والغايات التي يدور حولها القرآن الكريم كلياً أو جزئياً مع بيان كيفية الإفادة منها في تحقيق مصلحة العباد»^(٢).

فيظهر من خلال التعريف أن التفسير المقاصدي يتكون من:

١ - المقاصد الكلية، ويدخل فيها مقاصد القرآن العامة، مقاصد السور.

٢ - المقاصد الجزئية: مقاصد الآيات والأحكام والألفاظ.

(١) مقاصد القرآن (ص: ٢٩).

(٢) التفسير المقاصدي (ص: ٧).

منزلة التفسير المقاصدي:

التفسير المقاصدي جزء أساس من تفسير القرآن، ولا بد للمفسر من مراعاته، ذلك أن غاية المفسر بيان مراد الله تعالى من كلامه، وهو المقصود في الآيات.

قال ابن عاشور: «فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بآتم بيان يحتمله المعنى، ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن»^(١).

وقال الدكتور أحمد الريسوني: «المقاصد التفصيلية للآيات، هي التي يعنى بها عامة المفسرين»^(٢).

وقال الدكتور وصفي أبو زيد في التفسير المقاصدي: «الفهم المقاصدي للقرآن الكريم، أو لسوره، أو موضوعاته، لا غنى عنه لأي نوع من أنواع التفسير، ولا ينفك عنه المفسر أبداً، وهذا يشير إلى محورية المقاصد وضرورتها وأولويتها لدى المفسر»^(٣).

أثر التفسير المقاصدي:

يظهر أثر التفسير المقاصدي في التفسير من عدة جوانب:

١- بالنسبة للمقاصد العامة: فإن التفسير المقاصدي يبرز الغايات الكبرى التي أرادها الله في كتابه كالهديّة، والتوحيد، والتزكية، وتحقيق المصالح الدنيوية والأخرية.

٢- بالنسبة لمقاصد السور: فإن التفسير المقاصدي يبرز المقصد العام للسورة،

(١) التحرير والتنوير (١/٤٢).

(٢) الموقع الإلكتروني للدكتور أحمد الريسوني، المقال بعنوان: «مقاصد القرآن».

(٣) التفسير المقاصدي (ص: ١٧).

ويربط جميع أجزائها به فيجعلها في صورة مترابطة، ويبين معاني الآيات وهداياتها من خلال مقصدها فيكشف عن أسرارها وحكمها وهداياتها، وهذا أعظم ما ينبغي العناية به في تفسير السور.

٤- بالنسبة لمقاصد الآيات: فإن التفسير المقاصدي يتجاوز المعنى اللغوي إلى بيان مراد الله تعالى في الآية، وما تضمنته من حكم وهدايات.

٥- بالنسبة لمقاصد الألفاظ: فإن التفسير المقاصدي يبين اللفظة بالمعنى الجامع بين معناها اللغوي، ومراد الله منها، وما يجلي معناها ببيان التعليل والحكمة. وسيظهر في الدراسة التطبيقية من خلال تفسير السعدي، أمثلة موضحة لذلك بإذن الله تعالى.

• علاقة التفسير المقاصدي بالتدبر:

التفسير المقاصدي من أعظم نتائجه إبراز الجانب التدبري المتمثل في هدايات الآيات وتنزيلها على الواقع، ولهذا قال الشاطبي عند قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ (ص: ٢٩): «إنما التدبر يكون لمن التفت إلى المقاصد»^(١).

وهو الطريق إلى هدايات السورة والآيات وإبراز جوانب العمل فيها.

(١) الموافقات (٤/٢٠٩).

المبحث الأول: مقاصد القرآن العامة عند السعدي:

المطلب الأول: المراد بمقاصد القرآن

هي الغايات العليا التي أنزل القرآن لأجلها في دعوة الناس إلى عبادة الله، وتحقيق مصالحهم الدنيوية والأخروية^(١).

قال العز بن عبد السلام: «معظم مقاصد القرآن: الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفسد وأسبابها»^(٢).

وقال ابن جزري: «فاعلم أن المقصود بالقرآن: دعوة الخلق إلى عبادة الله وإلى الدخول في دينه، ثم إن هذا المقصد يقتضي أمرين لا بد منهما، وإليهما ترجع معاني القرآن كله؛ أحدهما: بيان العبادة التي دُعي الخلق إليها، والآخر: ذكر بواعث تبعثهم على الدخول فيها وترددهم إليها»^(٣).

وقال ابن عاشور: «المقصد الأعلى من القرآن: صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية»^(٤).

(١) مقاصد القرآن (ص: ٢٩).

(٢) قواعد الأحكام (٨/١).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٨/١).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/٣).

المطلب الثاني: عناية السعدي بمقاصد القرآن العامة.

عنى السعدي بمقاصد القرآن عناية بالغة، وجاء كتابه: «القواعد الحسان» مترجم لذلك، فغالب الكتاب في إبراز مقاصد القرآن، وكلياته، ومنهجه، وطريقته، وكل ذلك متعلق بالبعد المقاصدي.

ولعليّ أبين ذلك بالأمثلة:

في أول كتاب «القواعد الحسان» ذكر عدة قواعد في بيان المقاصد العامة للقرآن ومنها قوله:

(القاعدة الأولى: كيف يتلقى القرآن؟)

ومما قاله في بيانها: «فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم... فعلى الناس أن يتلقوا معاني كلام الله كما تلقاه الصحابة -رضي الله عنهم-، إنهم إذا قرؤوا عشر آيات أو أقل، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل فينزلونها على الأحوال الواقعة.. فيهدون بعلومه ويتخلقون بأخلاقه...، وختم كلامه بقوله: «ومتى علم العبد أن القرآن فيه تبيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح، مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذا القاعدة نصب عينه، ونزلها على كل واقع وحادث سابق أو لاحق، ظهر له عظم مواقعها، وكثرة فوائدها وثمراتها»^(١).

وكان السعدي في هذه القاعدة، يعطينا منهجاً لتفسير القرآن وفق مقاصده، وغاياته، وثمراته العملية.

وقد ألحق هذه القاعدة بقواعد متعلقة بها ومنها:

(١) القواعد الحسان (ص: ٩).

(القاعدة السادسة: في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده):

قال السعدي معلقاً على هذه القاعدة: «يكاد القرآن أن يكون كله لتقرير التوحيد ونفي ضده»^(١).

(القاعدة السابعة: في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-):

قال السعدي معلقاً على هذه القاعدة: «هذا الأصل الكبير قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه صلى الله عليه وسلم...»^(٢).

(القاعدة الثامنة: طريقة القرآن في تقرير المعاد):

قال السعدي معلقاً موضحاً هذه القاعدة: «وهذا الأصل الثالث من الأصول التي انفقت عليها الرسل والشرائع كلها... وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه وقرره بطرق متنوعة»^(٣).

(القاعدة التاسعة والعشرون: في الفوائد التي يجتنيها العبد في معرفته وفهمه

لأجناس علوم القرآن):

قال السعدي في توضيح هذه القاعدة: «وهذه القاعدة تكاد أن تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير، وذلك أن القرآن مشتمل على علوم متنوعة، وأصناف جلييلة من العلوم... فأجل علوم القرآن على الإطلاق علم التوحيد، وما لله من صفات الكمال...، ومن علوم القرآن صفات الرسل وأحوالهم...، ومن علوم القرآن: علم أهل السعادة والخير وأهل الشقاوة والشر...، ومن علوم القرآن: علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة على أعمال الخير وأعمال الشر، وفي ذلك

(١) المصدر السابق (ص: ٢٠).

(٢) القواعد الحسان (ص: ٢٢).

(٣) المصدر السابق (ص: ٢٥).

مقاصد جليلة: الإيمان بكمال عدل الله وسعة فضله، والإيمان باليوم الآخر...،
ومن علوم القرآن: الأمر والنهي، وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل الله
على رسوله...»^(١).

فتأمل كيف نص في هذه القاعدة على مقصد القرآن الكلي؟ ثم علق على القاعدة
بذكر مقاصد القرآن العامة وهي:

- ١- علم التوحيد، وما لله من صفات الكمال.
 - ٢- صفات الرسل وأحوالهم.
 - ٣- علم أهل السعادة والخير، وأهل الشقاوة والشر.
 - ٤- علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة على أعمال الخير وأعمال الشر.
 - ٤- الأمر والنهي، وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله.
- (القاعدة الخامسة والأربعون: حث الباري في كتابه على الإصلاح والإصلاح):

قال السعدي موضحاً هذه القاعدة: «هذه القاعدة من أعم القواعد، فإن القرآن
يكاد يكون كله داخلاً تحتها»^(٢).

وغالب القواعد التي ذكرها السعدي في القواعد الحسان متجهة نحو الجانب
المقاصدي في بيان المقاصد العامة والخاصة في القرآن.
ولذا فيمكن القول بأن هذا الكتاب يعتبر كتاباً في مقاصد القرآن العامة
والخاصة.

(١) المصدر السابق (ص: ٨٧).

(٢) القواعد الحسان (ص: ١٢٠).

المبحث الثاني: مقاصد السور في تفسير السعدي.

المطلب الأول: التعريف بمقاصد السور.

مقصد السورة هو: «الغاية الجامعة لمعاني السورة ومضمونها»^(١).

وتجلى أهمية علم مقاصد السور ومنزلته بأمر:

أولاً: أن مقصد السورة هو أصل معانيها التي ترجع إليه، فهو أصل في فهم معاني كلام الله تعالى، ولهذا فإن معاني السورة لا تتحقق إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر واستخراج مقصدها.

قال الشاطبي: «اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالإقتصار على بعضها غير مفيد للمقصود منها»^(٢).

ثانياً: أنه يعين على فهم كتاب الله تعالى فهماً صحيحاً، ويوصل إلى معرفة الحق في تفسير كلام الله تعالى، والتبحر في دلالاته وهداياته، ودقائق معانيه.

قال البقاعي في كلامه على علم المقاصد: «وغايته: معرفة الحق من تفسير كل آية من تلك السور، ومنفعته: التبحر في علم التفسير»^(٣).

ثالثاً: أن معرفة مقصد السورة الذي تنتظم به معانيها وآياتها، سبيل للسلامة من الخطأ، وتفسير كلام الله على غير مراده^(٤).

رابعاً: أن مقاصد السور من أعظم ما يتحقق بها ربط الآيات بالواقع، وذلك أن المتدبر في مقصد السورة يعايش السورة معايشة تبعثه على التفاعل والعمل والتطبيق.

(١) علم مقاصد السور (ص: ٧).

(٢) الموافقات (٣/ ٤١٥).

(٣) مساعد النظر (١/ ١٥٥).

(٤) دلائل النظام (ص: ٧٥).

المطلب الثاني: عناية السعدي بمقاصد السور.

لم أجد للسعدي منهجاً مطرداً في بيان مقاصد السور، لكننا حين ننظر في ثنايا تفسيره للسورة، نجد أنه يذكر أحياناً ما تتجه إليه السورة من مقصد عام، مثال ذلك: قال في تفسيره لسورة الفاتحة: «فهذه السورة على إيجازها، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة... وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة»^(١).

وقال في سورة آل عمران: «نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في دين الإسلام»^(٢).
وقال في سورة الإنسان: «ذكر الله في هذه السورة الكريمة، أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها»^(٣).

وقال في سورة النصر: «في هذه السورة الكريمة بشارة وأمر لرسوله صلى الله عليه وسلم عند حصولها، وإشارة وتنبية على ما يترتب على ذلك»^(٤).
وقال في سورة الناس: «وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها»^(٥).
وبالجملة فإن عناية السعدي في بيان مقاصد السور قليلة.

(١) تفسير السعدي (٢٨/١).

(٢) المصدر السابق (١/١٢٥).

(٣) المصدر السابق (٢/١٠٦٣).

(٤) المصدر السابق (٢/١١٠٦).

(٥) المصدر السابق (٢/١١٠٨).

المبحث الثاني: مقاصد الأحكام في تفسير السعدي

ظهرت عناية السعدي بإبراز الحكمة في التشريعات، ويعتبر هذا الجانب من أبرز من تميز به السعدي من جوانب المقاصد، ومن الأمثلة في ذلك:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ؕ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۗ﴾ (المائدة: ١)

قال السعدي في بيانها: «وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرّم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض، من الميتة ونحوها، صونا لكم واحتراما، ومن صيد الإحرام، احتراماً للإحرام وإعظاماً»^(١).

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَفِقَةُ وَالْمُؤَفَّقَةُ وَالْمُرْدِيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ؕ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ؕ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ؕ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْبَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۗ﴾ (المائدة: ٣)

قال السعدي: «واعلم أن الله تعالى لا يحرم ما يحرم إلا صيانة لعباده وحماية لهم من الضرر الموجود في الموجودات، وقد بين ذلك لعباده وقد لا بين»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ؕ وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ (النساء: ٤٣)

قال السعدي في بيانها: «ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة

(١) تفسير السعدي (١/٢٣٩).

(٢) المصدر السابق (١/٢٤٠).

لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها وهو الخشوع وحضور القلب».

قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧)

قال السعدي: «أي يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره»^(١).

وقال أيضاً بعد بيانه للآية: «والمقصود من الحج الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبروراً، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٢).

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾

(المائدة: ٨٧)

قال السعدي: «ما أحل الله لكم من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذ أحلها لكم، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء»^(٣).

فتبين لنا من خلال هذه الأمثلة عناية السعدي بهذا الجانب وبروزه في تفسيره.

(١) المصدر السابق (١ / ٩١).

(٢) تفسير السعدي (١ / ٩١).

(٣) المصدر السابق (١ / ٢٤٢).

المبحث الرابع: مقاصد الآيات في تفسير السعدي

المطلب الأول: المراد بمقاصد الآيات

مقاصد الآيات هي: الأغراض الخاصة التي تضمنتها الآية الكريمة في ضوء سياقها.

ولا شك أن كل آية تتضمن غرضاً مستقلاً أو مكماً لما قبلها في سياق الغرض العام للسورة؛ ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أُحْكَمْتَأَ أَيَّنُّهُ﴾ (هود: ١)؛ ولا شك أن من الإحكام كون الآية دالة على معانٍ وأغراض مهمة مبنية ومنتظمة مع ما قبلها وبعدها.

والفرق بين معنى الآية ومرادها أو غرضها أو مقصدها هو: أن معنى الآية يغلب فيه المعنى اللغوي حسب لغة العرب أو اصطلاح الشرع، ويدخل فيه الغريب والمعاني اللغوية، وأقوال المفسرين في بيان معنى مفردات القرآن.

أما المراد أو الغرض فهو المعنى السياقي المحقق للغاية التي أرادها الله تعالى في كتابه، مثال ذلك:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَضَمُّ﴾ (الإخلاص: ٢).

فالمعنى اللفظي هو: بيان معاني الضم في اللغة وأقوال المفسرين.

والمعنى السياقي أو المراد والغرض هو: ماذا يريد الله من عباده تحقيقه في هذه الآية، وهو العلم بكمال الله تعالى وغناه، وحاجة الخلق إليه، مما يلزم توحيده والتوجه إليه وجده.

وتظهر أهمية دراسة مقاصد الآيات من خلال عدة أمور:

١ - أن مقصد الآية هو تحقيق لمعرفة لمراد الله منها، وهو الأهم في بيان الآية.

- ٢- معرفة الرابط بين الآية وما قبلها وبعدها بحسب السياق؛ ففرض الآيات ومقصودها تنتظم به الآيات ومناسباتها.
- ٣- معرفة الفرق بين الآيات المتشابهة، فالطريق الأسلم لمعرفة الفرق بين الآيات المتشابهة، هو النظر لمقاصدها وأغراضها، مثال ذلك:
- بيان سر التعبير في قوله: ﴿فَأَنْفَجَرْتُمْ﴾ (البقرة: ٦٠)، وقوله: ﴿فَأَنْبَجَسْتُمْ﴾ (الأعراف: ١٦٠) والموقف واحد، فحين تتأمل في الغرض في قصة البقرة نجد أنه التذكير بالنعمة وتعدادها على بني إسرائيل، فناسب التعبير بالانفجار الذي هو أظهر حال في كمال النعمة.
- ٤- تحقيق المعنى الصحيح في الآيات التي فيها إشكال: فكثير من الآيات التي يعدّها المفسرون مشكلة أو موهمة التعارض؛ نجد أن الحلّ الأسلم لبيانها، هو النظر في مقصودها وغرضها في السياق الذي وردت فيه.

المطلب الثاني: عناية السعدي بمقاصد الآيات

للسعدي طريقة تميز بها في التفسير، وأرى أنها من أبرز ما جعل للسعدي هذا القبول والأثر المبارك، وهو عنايته بالغايات والعلل والحكم، في الآيات وخواتيمها وإبرازها في تفسيره، حتى إن الذي يتتبع ذلك يجزم بأنه منهج مطّرد مقصود في تفسير السعدي، يؤكد ما وضحته في المطلب السابق من عنايته ببيان مقاصد القرآن في كتابه القواعد الحسان.

ولعلي في هذا المطلب أن أذكر أمثلة تجلي عنايته بهذا الجانب:

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (البقرة: ٢١).

قال السعدي: «هذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه»^(١).

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: ١٢)

قال السعدي: «أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنی وعبودوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن

(١) تفسير السعدي (١/٤٤).

ذلك، الظالمون المعرضون»^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾
(البقرة: ٩٩).

قال السعدي: «﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة
الحجة على من عاند»^(٢).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ؕ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ إِيَّاهُ مَا بَلَغَ
عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلٍ ؕ وَالصَّيْدُ حَرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ (المائدة: ١).

قال السعدي في أولها: «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه
الإيمان بالوفاء بالعقود»^(٣).

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ (آل
عمران: ٧٩)

قال السعدي: «وهذه الآية نزلت رداً لمن قال من أهل الكتاب للنبي صلى الله
عليه وسلم لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع
الله؟»^(٤).

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٣٦﴾﴾ (آل عمران: ١٩٦)
قال السعدي: «وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من

(١) المصدر السابق (١/ ٨٧٢).

(٢) المصدر السابق (١/ ٦٠).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٣٨).

(٤) تفسير السعدي ١ (١٣٦).

متاع الدنيا، وتنعمهم فيها»^(١).

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ (النساء: ١٢٦)

قال السعدي: «وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء»^(٢).

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ ﴿٨﴾﴾ (الزلزلة: ٧ - ٨).

قال السعدي: «وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً»^(٣).

ومما برز فيه السعدي بيان الحكمة من ختم الآيات بالأسماء والصفات، وهو من أبرز الجوانب التي عنى بها السعدي في تفسيره، بل جعله قاعدة من القواعد الحسان، ومن أمثلة ذلك:

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة: ١٩٦).

قال السعدي: «أي لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله انكف عما يوجب العقاب»^(٤).

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٢٩).

(١) المصدر السابق (١/١٦٢).

(٢) المصدر السابق (١/٢٠٦).

(٣) المصدر السابق (١/٩٣٢).

(٤) تفسير السعدي (١/٩١).

قال السعدي: «ختم الآية باسمين كريمين دالين: على سعة رحمته، وعموم مغفرته، وسعة إحسانه...، ولم يختمها باسمين أحدهما: دال على الرحمة، والثاني دال على النعمة، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر»^(١).

(١) المصدر السابق (١/١٤٦).

المبحث الخامس: مقاصد الألفاظ عند السعدي.

مقاصد الألفاظ هي: بيان ما تتضمنه الألفاظ، وتراكيبها، وأساليبها، من أغراض وعلل.

وهذا الجانب هو المنهج المطرد في تفسير السعدي، بل هو أعظم ما يميزه في تفسيره ذلك أنه لا يكتفي في بيان الألفاظ بالمعنى اللغوي، ولا ببيان التراكيب والأساليب كبيان بلاغي، وإنما يبين ما تضمنته من غرض وحكمة في ضوء سياقها، وهو المعنى المقاصدي.

ويمكن تقسيم هذا المبحث إلى مطالب:

المطلب الأول: بيان المعنى المقاصدي للفظه القرآنية

المعنى المقاصدي هو بيان ما تتضمنه اللفظة من معنى غريب لغوي، وغرض سياقي، وهو ما يمكن أن نسميه: المعنى السياقي أو المقاصدي.

قال السعدي: «وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطّول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقصّر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية، بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه فينظر في سياق الكلام، وما سبق لأجله»^(١).
ومن أمثلة ذلك:

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ١)

قال السعدي: «الله: هو الإله المعبود المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به

(١) تفسير السعدي (١/٣٩).

من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال»^(١).

قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ (البقرة: ٥٩)

قال السعدي: «فقالوا بدل حطة: حبة في حنطة، استهانة بأمر الله واستهزاء»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (التحریم: ١٢)

قال السعدي: «أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها،

ونزاهتها».

قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾﴾ (الأنعام: ٩٦)

قال السعدي: «يسكن فيه الأدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها،

والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة»^(٣).

(١) تفسير السعدي (١/٥٣).

(٢) المصدر السابق (ص: ٣٠).

(٣) المصدر السابق (١/٢٦٦).

المطلب الثاني: بيان أغراض التراكيب والأساليب

السعدي يعنى عناية كبيرة باستنباط الدلالات الأصولية وأغراضها، والأساليب البلاغية وأسرارها، وهو جانب متعلق بالمقاصد وبيان الحكمة.
ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَمَارَاتِفَهُمْ يُفِقُونَ ۝٣﴾ (البقرة: ٣)

قال السعدي: "أتى بـ (من) الدالة على التبعض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل يتفعلون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم" (١).

قال تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ (البقرة: ٤)

قال السعدي: ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ خصّه بالذكر بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرغبة والعمل" (٢).

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾ (البقرة: ٢٩)

قال السعدي: "وفي هذه الآية العظيمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سيقّت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث، فإن تحريمها أيضاً يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر، فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته، منعنا من الخبائث، تنزيهاً لنا" (٣).

(١) تفسير السعدي (١/٤٠).

(٢) المصدر السابق (١/١٠٦).

(٣) المصدر السابق (١/٤٨).

قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَغَيِّرُ الْحَقَّ﴾ (البقرة: ٦١)

قال السعدي: « وقوله: ﴿وَيَغَيِّرُ الْحَقَّ﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم»^(١).

قال تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ سَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٥٠)، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ (البقرة: ١٤٩)

قال: «خاطب الأمة عموماً فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ سَطْرَهُ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أكده بـ (إن) و(اللام) لثلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولثلا يظن أنه على سبيل التشهي لا الامتثال»^(٢).

فبيانه لغرض دلالة العموم وسر الإتيان بـ (إن) المؤكدة واللام، إبراز للحكمة والغرض، وهو جانب من جوانب التفسير المقاصدي.

بالتأمل في هذه الأمثلة يظهر لنا عناية السعدي ببيان جوانب الحكمة، والعلة، والغرض، في الدلالات الأصولية والأساليب البلاغية، وهو كثير جداً في تفسيره، ويمكن اعتباره منهجاً بارزاً لدى السعدي، يظهر ذلك بسبب عنايته بالدلالات الأصولية واللغوية.

(١) المصدر السابق (١/ ٦٠).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٤٨).

الخاتمة

وفيها أهم النتائج والتوصيات:

أهم النتائج:

- ١- أن السعدي رحمه الله قد عنى ببيان المقصد والحكمة في الآيات بما يمكن اعتباره منهجاً بارزاً في تفسيره، ولذا فيعتبر تفسيره عمدة في ذلك.
- ٢- فيما يتعلق ببيان السعدي لمقاصد القرآن العامة، فإنه قد عنى عناية ظاهرة صرح بها في مقدمة تفسيره، وفي كتابه القواعد الحسان الذي ركز فيه على بيان مقاصد القرآن ومنهجه وطريقته.
- ٣- فيما يتعلق بعناية السعدي لمقاصد السور لم تكن عناية السعدي به ظاهرة.
- ٤- فيما يتعلق بعناية السعدي بمقاصد الأحكام، فقد تجلّى لي عنايته الكبيرة بذلك بل لا تكاد تجد آية في الأحكام إلا وأبرز ما فيها من حكم ومقاصد تشريعية.
- ٥- فيما يتعلق بعناية السعدي بمقاصد الآيات، فقد ظهر لي جلياً عناية السعدي بالمعنى السياقي أو المقاصدي، وقد صرح بذلك في مقدمة تفسيره، وعليه فيعتبر هذا الجانب منهجاً بارزاً في تفسيره.
- ٦- فيما يتعلق بعناية السعدي بمقاصد الألفاظ ودلالاتها وأساليبها، فإنه كثيراً ما بيّن ذلك ضمن بيانه لمعنى الآية وهو جانب دقيق في التفسير.

أهم التوصيات:

أوصي بما يلي:

- ٧- دراسة هذا الجانب عند السعدي في مشروع بحثي يبرز فيه منهج السعدي وطريقته.
- ٨- قراءة تفسير السعدي بتركيز على جوانب الحكمة والتعليل والغرض لتتكوّن لدى القارئ ملكة التفسير المقاصدي.
- ٩- العناية بدراسة هذا الجانب في التفاسير الأخرى كابن كثير، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، وابن العربي، وابن عاشور.

(٢٦)